

نوفيل

# كأن شيئاً لم يكن

آلاء خليل

مجموع بيت الروايات و الحكاوي المصرية

غاية  
عز الدين



كأنَّ شيئاً لم يكن.

(قصة قصيرة)

آلاء خليل.

التصنيف: قصص قصيرة.

المؤلف: آلاء خليل.

تصميم الغلاف: غادة عز العرب.

إهداء إلى:

من روى الوردة التي تفتحت قبل أوانها، ها هي قد أزهرت وما زالت  
تذكرك خفية في قلبها.. إليه!

"لقد كانت صداقتنا أجمل صدفة مرت على حياتي، ليتني لم أحبك،  
لقد أضاع الحب كل شيء!"

التقطها بين ذراعيه مترنحةً من كثرة الشراب، حاول إبعاد الكأس عن يدها لكنها تشبثت به كطفلة غاضبة تريد دميته، مرت عدة دقائق وهي تجاهد لإستعادة إتزانها.

تجرت آخر ما تبقى بالكأس مرةً واحدة، ومن ثمّ ألقته بعيداً وهي تصيح بأعلى صوتها بكلمات غريبة تُصاحبها ضحكات هysterية.

حاول إمساك يدها ليغادران المكان، لكنها ابتعدت مراوغة بينما تتمايل بطريقة عجيبة مع الموسيقى الهادئة، سكنت لوهلةٍ ولمعت الدموع في عينيها مختلطة بتيه:

-لماذا لم تحبني ها؟

نظر إليها ببرود ولم يتحدث، لتكمل باستهزاء:

-ههه ستصمت كالعادة، وما الجديد!؟

توقفت عن الحديث لبرهة وهي تضحك لتكمل:

-حسنًا، لما تكرر هني إذا؟

أدار وجهه للجهة الأخرى وتأفف بضجر:  
-أنا لا أكرهك.

ضحكت فريدة باستهزاء وهي تمسك بكأس خمر آخر لتفرغه بجوفها  
للمرة العاشرة، فاض به الكيل وتملكه الغضب فأمسك الكأس من يدها  
وألقى به بعيداً ليدوى صوت تحطم شديد.

ومن ثمّ أمسك يدها بقوةٍ، وهمّ أن يغادرا المكان الذي خلا من الناس  
في هذا الوقت المتأخر من الليل.

باغتنه بسحب يدها بشدة وعادت لداخل الملهى حيث الكأس  
المكسورة، جلست جوارها القرفصاء بهدوء بينما وضعت يدها أسفل  
ذقنها، وعمّ السكون المكان مرة واحدة.

عاد خلفها وهو يلعنها بسرّه لكن لوهلةٍ توغل الخوف داخل صدره  
طارقاً جدران قلبه بعد أن رأى هيأتها المخيفة تلك، شعر بالرغبة من  
هدوئها الذي لم يعتده.

اقترب منها يجلس على مقربةٍ منها ثانيًا ركبتيه، يراقب الدموع ترسم  
طريقًا على وجنتيها بينما تحمق في الكأس بغرابة.

لانت ملامحه القاسية قليلاً وهو يرى الدموع تملأ مقلتيها، أخرج آدم  
نفساً عميقاً وسألها بنبرة شبه متزنة:  
-فقط أخبريني ما بكِ؟

أضحت ملامحها كملامح امرأة غريبة تتبسم كمجنونة، نظرتها  
العجيبة للكأس المُحطم، طريقة جلوسها، مراقبتها له، أجابته بهدوء  
مرعب:

-أترى هذا الكأس الذي كسرتَه منذ قليل ولم تبالي به؟!!

لم يتحدث لتكمل وعينيها لم تتزحزح من على شظايا الزجاج:  
-انظر كيف كُسر الكأس بعد أن كان في أبهى حلته، هكذا فعلت مع  
قلبي.!

باغنته بإمساك يده في حركة سريعة، تضعها على قلبها وعينيها  
المغروقتين بالدموع لم تزالا عن مراقبة عينيهِ:

-هل تشعر بشيء؟ هل تسمع دقاته؟ وإن كنت تسمعها انظر كيف  
يخفق والبرود يغلفه! لماذا نبذتني بهذه الطريقة؟ أتيتك وقلبي يجهل  
الحب، أمسى بريئاً وصافياً، علمته الحب ومن ثمَّ دهسته بلا رحمة!



نبذت فريدة يده وحولت النظر لِكفها، علت وجهها ابتسامة ساخرة:  
-أنا من أعطيتك إياه بيدي، أنا السبب في كلّ هذا، أصبح قلبي عقيماً  
بعد حبك، الخوف يحيطه من كل مكان، باتت رهبتة أن يبذل مشاعره  
خوفاً من أن يُخذل مجدداً.

في وسط الزحام بحثت عن يدك، كالمغيبة عن العالم أبحث عن وجهك  
في وجوه المارة، عن ذلك الشخص الذي أحببته لكن لم أجدك، حتى  
هُديت إلى عابرٍ أمسك يديّ ومسّد عليها بحنو وهمس جوار أذني

" كنتُ أنصح جميع من مرّوا بحياتي ألا يُحبوا بصدقٍ فقط خوفاً من  
تلك النظرة في عينيكِ! "

تقطع قلبه لبكائها، لم يستطع منع نفسه، فمدّ يده يمسح دموعها وهو  
يُعاتبها:

-حذرتكِ من الاقتراب يا فريدة، أخبرتكِ أن الشخص المائل أمامكِ  
الآن قد استهلكه الحب في حياته، مرّ قلبي بتجربة حبٍ لا يتمناها  
أحد.

أحببت امرأة تركتني في منتصف ساحة القتال بمفردي، حتى أضحيت  
أبحث عنها في عيون المارة كالمجنون!

ضمت يديها لصدرها ورفعت عينيها متبسمة بألم:

-وأنا يا آدم، ما هو ذنبي للوقوع في عشق رجل غير صالح للحب؟!  
أتعتقد أنني سأختبرك قبل الوقوع في حبك؟

ماذا فعلت لأقع في عشق رجل أذبل قلبي بعد أن أحبه؟ بحجة أن قلبه  
ما زال معلقًا بأخرى..

مسح على وجهه وحاول تمالك نفسه، هبَّ واقفًا من مكانه وأردف:

-أشعر بقلبك وكيف حاله بعد أن أحب بكل طاقته وبذل مشاعره في  
سبيل حبٍ من طرفٍ واحد لم يُكتب له أن يولد وأجهض في مراحل  
الأولى.

انظري لحالك بعد أن أحببتِ، كُفي عن كتابة المزيد من الشقاء 1.  
لقلبك يا فريدة، سلام حتى ألقاك مجددًا.

ثم همس بصوت خافت:

-وإني أرجو ألا يُكتب لنا اللقاء مرةً أخرى تفاديًا لتلك الطعنات  
المؤلمة في قلوبنا..

شرعت في الوقوف واستجمعت كامل قوتها وهي تنظر له بينما لم  
تخلو عينيها من تلك النظرة، مسحت دموعها، ثم مدت يدها تصافحه  
وهي تبتسم بكل عفوية برغم الألم الذي يتغلغل صوتها وكلماتها:  
-ليتني لم ألتقيك وتأخرتُ ذاك اليوم، أريدُ اكتساب فرصة أن أعود  
وأصيغ ذلك اليوم مجددًا، أتأخر ولو لدقيقة واحدة.  
لو كنتُ أعلم أنه في ذاك اليوم وتلك الساعة بالتحديد سأذوقُ مرارة ألمٍ  
يكفي دهرًا بأكمله ما كنت لأستقل القطار وكان شيئًا لم يكن.  
إلى اللقاء يا آدم وصدقًا لن تراني ولو بعد حين.

\*\*\*

مرّ على ذلك اليوم سبع سنوات وثلاثة أشهر وعشرون يومًا، لم أستطع نسيناه برغم كلّ شيءٍ، غادر يومها وترك قلبي مشوهًا يهاب الاقتراب من الناس.

الخوف الملازم له من العلاقات والحياة الإجتماعية، ليُمسى في النهاية وحيدًا، وجدتُ نفسي أخلو إلى أوراقٍ وقلمي أشكو إليهما حالي.

لم أعد أريد التعرض للخذلان مجددًا بأي شكل، لا أريد الاقتراب من أحدهم لأكتشف في النهاية أنّه لا يستحق الثقة بعد كمّ المشاعر التي سأكون قد بذلتها في سبيله لتذهب سُدى في النهاية!

بعد وفاة والدتي منذ عامين أصبح منزلي يخلو من البهجة، كانت السبب الوحيد الذي كنت أجاهد لأحیی من أجله، باتت حياتي هادئةً للغاية من بعدها، اعتزلت الشرب بصعوبة، تغير كلّ شيءٍ بيّ.

كفتاةٍ عشرينيةٍ هرمت، أوي إلى كتبي التي أصبحت ملاذي مذ أن  
تركني محطة، بات قلبي يذكره في كلّ روايةٍ أكتبها، أخطُ الاشتياق  
الذي يلفح قلبي له في صورةٍ كلماتٍ لا تعد ولا تحصى.

ما زال قلبي يحبه للأسف، لكن عقلي يقنعني كلّ فترةٍ أنّها هلاوس فقط  
لا أكثر، أهو تكبر أم ماذا؟ لا يهم أيًا يكن..

توقفتُ عن التفكير الذي كاد يفتك بيّ مع صوت فتاةٍ مراهقةٍ -تبدو في  
السادسة عشر من عمرها على حدّ ما- تُمسك بروايتي وهي تبسم  
ببراءةٍ طالبةٍ توقيعي عليها.

عدت بعقلي للواقع من هلاوسي البلاء لأتذكر أنّي مازلتُ في حفلة  
التوقيع، حاولت رسم ابتسامةٍ على شفّتي، لكن يبدو أنّ ملامح وجهي  
قد تناست كيفية التبسم منذ فترةٍ كبيرةٍ..

-ما هو اسمك عزيزتي؟

-فريدة.

توقف قلبي لوهلةٍ وتذكرته، عندما كان يخبرني كم أنّه يعشق اسمي  
وكم يتمني أن يرزقه الله بفتاةٍ في شبيهةٍ بيّ ليُسميها تيمناً بيّ، جال  
شريط ذكرياته بخاطري.

فتنهدت بنقل وأكملت التوقيع ومن ثمَّ أعطيتُ الرواية لها وأنا أقول  
بعملية:

-أتمنى أن تكون الرواية عند حُسن ظنك يا جميلتي.

نظرتُ لساعتي سريعًا، لأتبين أنه قد مرَّ الكثير من الوقت دون أن  
أشعر بين التفكير به وتوقيع الكتب للقراء وسماع آرائهم الرائعة.

كدت أغانر فأردفت الفتاة بسرعة وهي تقول بعفوية:

-سيدتي، هل يمكنكِ تكتبي إهداء هذه الأخرى لشخصٍ ما؟

تبسمتُ قائلةً:

-بالتأكيد، ما اسمه؟

-آدم.

توقف الزمن لبرهة، هذا الاسم الذي يتردد صداه بين ثنايا قلبي منذ  
سبع سنوات كاملة لكن لم يحدث وأن سمعته أذناي بطلاقةٍ هكذا، وها  
قد سمعه قلبي من جديد، أفقت من شرودي سريعًا بعد أن لاحظتُ  
علامات الغرابة قد اعتلت ملامح الفتاة، على أية حال بالتأكيد ليس  
الوحيد الذي يحمل ذلك الاسم..

ابتسمت لها وأنا أُعطيها الكتاب بعد أن أنهيتُ توقيعَه، استدارتُ  
مغادرة، لكن توقفت قدامي عنوةً وأنا أسمع ذاك الصوت المؤلف  
بتمعن.

-فريدة هيّا يا عزيزتي لقد تأخرنا.

تصلبت قدامي، الصوت ذاته، إنّه هو!!

\*\*\*

لا أعلم كيف طاوعني قلبي لأتركها هكذا، ملقاة على أرضية الحانة  
تتوسل بعينيها ألا أتركها هكذا في منتصف الطريق، قد أفسدت  
الدموع كحل عينيها البنيتان وانتفخت شفتاها من كثرة البكاء.

كم تمنيت أن احتضنها في تلك اللحظة وأطمئنها أن كل شيء سيصبح  
بخير، هه يا لي من محتل كيف أطمئن قلبها وأنا سبب رعشته  
وخوفه، أدت ظهري لها بكل برودٍ لأُغادر وكانت المرة الأخيرة  
التي أراها فيها، مازالت صورتها بتلك الهيئة تحتل قلبي وتسيطر  
على عقلي.

لا أعلم من أين جلب قلبي هذه القوة وأصبح بهذا الجبروت، ملأت  
الغيوم السماء وكأنها حزينة على ما آلت إليه الأمور، رفعت رأسي  
للسماء لتُقابلي أول قطرة من قطرات المطر، كانت باردة ونقية  
وكفيلة بما يكفي لتغطي هي وأخواتها مسار دموعي.

لم أستطع التحامل أكثر من هذا لأحزرك راعًا على ركبتي، صرخت  
بأقصى ما لدي، صرخت لأني أحرق خسر الشخص الوحيد الذي  
أحبه في حياته للتو، الذي تقبلني بكافة عيوبي، وبماذا قابلت محبتها!؟



كسرتها بكل برود وها قد رحلتُ في صمت قاتل، لا أعلم كيف  
حملتني قدماي لأسير لمنزلي كعجوزٍ ألقى الحياة على كتفه كافة  
همومها، لم أهتم بالصقيع الذي يجوب أرجاء المكان، أشعلتُ المدفأة  
وأحضرتُ مذكراتي لأشبع قلبي من ذكرياتها، الصفحة الأولى..

\*\*\*

"العشرون من أبريل..

كانت الرياح شديدة في هذا اليوم، لم أتوقف عن التذمر داخلي على  
هذا الحظ الذي طالما كان سببًا في وجودي دائمًا في التوقيت الخاطئ  
وفي المكان الخطأ.

واللعنة أيضًا على هذا السائق الغبي لقد فاتني القطار بسبب حماقته،  
على الآن أن أنتظر القطار التالي، يبد اليوم مبشرًا منذ بدايته.

جاستُ على أحد المقاعد المخصصة للانتظار حتى رأيتها! كانت  
جميلة بطريقة معقدة وغريبة للغاية، شعرها القصير الذي يغطي  
رقبتها، عينيها اللتان تلمعان بطريقة خلابة وكأن القهوة قد فارت  
فيهما، ابتسامتها وآه منها حين ابتسمت بعفوية لتكشف عن صف من  
اللؤلؤ يُزين ثغرها.

أفقت من تمعني الذي بدا وقحًا إلى حدٍ ما لأزيح عينيَّ عنها،  
أخفضت عينيَّ فلمحتها تقترب لتجلس بجواري نظرًا لانشغال جميع  
المقاعد، لا أعلم إن كان من حُسن حظي أم من تعاسته أن تجلس  
بجواري حسناءً كهذه!

ترتدي الأبيض وكأنه في حلتته الجديدة، بيدها رواية ما تستدعي كافة  
انتباهها مما أعطى لي مساحة التمعن بها من جديد بحرية دون أن  
تنتبه، رفعة حاجبيها مع تأثرها بكل جزءٍ تقرأه، عضها لشفثيها،  
اتساع عينيها، ونظرتها إليّ و.. اللعنة إنها تنظر إليّ!"

\*\*\*

أغلق المذكرات وقد خانتها عيناه لينهار في البكاء بدون سابق إنذار، يريد العودة إليها، كم قسى قلبه في سبيل أن يبتعد عنها خوفاً من تكرار التجربة مجدداً، أن يذوق مرارة الحب ولعناته مرة أخرى لكن بطريقةٍ مختلفة.

استقرت عيناه على المذكرات، يخاف أن يلمسها حتى فتنها عليه الذكريات واحدة تلو الأخرى، استجمع آخر ما تبقى من شجاعته المزيفة وفتحها.

لم يستطع إكمال القراءة لكنه ظلّ يتفحص الأوراق لتُعاقبه التواريخ بدلاً من الأحداث، ابتسم بوهنٍ وشرع يقرأ بصوتٍ خافت:

"العشرون من أبريل، هنا رأيتها للمرة الأولى!

الثاني عشر من مايو، كُتب لي أن ألتقيها مجدداً!

التاسع عشر من مايو، أستطيع القول أننا أصبحنا أصدقاء على ما يبدو!

الثالث والعشرون من مايو، كانت سهرة مميزة برفقتها!

الثالث من يوليو، لأول مرة تلجأ إليّ وهي تبكي لأضمها برفق حتى سكنت!

العاشر من يوليو، لأول مرة أشعر بخوف من فقدانها"

ألقيتُ المذكرات بعيدًا، لم أستطع التحمل أكثر، تكاد الذكريات تفتك بعقلي، فاض الكيل بيّ، خانتني قدمي لأقع أرضًا بينما شريط ذكرياتي معها يمر بعقلي، شعرتُ بألم كاد أن يفتك بقلبي.

وسط كلِّ هذا لا أعلم كيف طارت تلك الورقة التي اختبأت غلسةً في منتصف المذكرات، استقرت أمام المدفأة وكادت أن تحترق لولا إمساكي لها بسرعة، زُينت بتاريخ حُفر في ذاكرتي حتى بات من الصعب نسيانه..

"الثالث عشر من سبتمبر يوم لمعت عينيها وأفصحت بخجل عن حبها ليّ..! انتفض قلبي لوهلةٍ لم أستطع الشعور بالسعادة بقدر خوفي من القادم، هي تحبني! تحب شخصًا استهلك الحُبُّ قوته حتى أمسى كهلاً في ريعان شبابه.

نظراتها، لمعة عينيها عندما أمسك يدها، وجهها عندما يُسدل بستر الخجل، هي خُلقت للحب ولا شيء آخر، لكن لم تُخلق لقلبٍ كقلبي على أية حالٍ.."

\*\*\*

سكنت الأجواء، صمت كلُّ شيء حولهما عدا صوت قلوبهما، تمعنت بهيأته التي تغيرت بالكامل، لحيته التي نبتت والأرق الملازم لعينيه. لم يخجل من إطالة النظر إليها هذه المرة، ملبسها السوداء، شعرها الذي طال بشكل ملحوظ، والعوينات التي فشلت في إخفاء عينيها الباهتة..

أفاق من تمعنه على يد فريدة التي أمسكت بملابسه والفرحة تعمها كطفلة صغيرة وهي تريها الكتب التي أحضرتها، نظرت حولها وأشارت لفريدة الشاردة وقالت:

-غيثي لن تُصدق ما الذي حدث، لقد حصلت أخيراً على التوقيع الذي طالما تمنيته، أتذكر كاتبتي المفضلة التي حدثتك عنها بالأمس ها هي هُناك.

أنهت حديثها وهي تشير لفريدة التي بدأت الدموع تتجمع بعينيها، لكنها تماكنت نفسها بقوة، ثم ابتسمت وأدارت ظهرها لتغادر بثبات،

بينما هو لا يصدق أنه قد رآها أخيراً بعد كل هذه السنوات العجاف  
التي مرت بقلبه.

جلس القرفصاء بمواجهة فريدة وابتسم قائلاً:

-فريدة دعيني أسألك شيئاً، لِمَا تحبينها لهذا الحد؟ ما هو الشيء  
المميز بما تكتبه!؟

ابتسمت بهدوءٍ وقالت بعفوية:

-في كلّ روايةٍ تكتبها هناك شيءٌ مُريب، إمّا أبطالها تُبعدهم المسافات  
وبرغم ذلك جمعهم الحب، وإمّا تنعدم بينهم المسافات وبرغم ذلك تأتي  
قلوبهم أن تلتقي، وفي روايتها الثالثة التي أُصدرت في بداية هذا العام  
افترقا منذ سنينٍ وبرغم ذلك مازال هناك أملٌ في اللقاء لم تياس بطلّة  
الرواية ومازالت تنتظر..

باغتها بسؤاله سريعاً:

-نُّمّ ما الذي حدث في نهاية الرواية!؟

هزت رأسها بمعنى لا وهي تقول:

-لا أحد يعلم كيف انتهت الرواية، تركت النهاية مفتوحة مع مشهد  
البحر.

قَبَّلَهَا بِرْفَقٍ عَلَى جَبِينِهَا وَأَرْدَفَ قَائِلًا:

-حَسَنًا عَزِيزَتِي، وَالذُّكُ يُنْتَظَرُكَ هُنَاكَ هَيَّا اذْهَبِي إِلَيْهِ وَأَخْبِرِيهِ أَنِّي  
سَأَذْهَبُ لِلْقِيَامِ بِشَيْءٍ هَامٍ، سَأَعُودُ بِمَفْرَدِي فَلَا تَنْتَظِرَانِ.

وَدَعَتْهُ بَعْفُويَةً وَذَهَبَتْ لُوَالِدِهَا، سَحَبَ نَفْسًا عَمِيقًا وَسَارَعَ بِالسَّيْرِ، لَنْ  
يُتْرَكُهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ لَقَدْ طَالَ عَذَابُهُ لِهَذَا الْحَدِّ وَاعْتَرَفَ عَلَى حِمَاقَتِهِ  
وَسَيِّسَتْ رَدِّهَا، تَوَقَّفَ فَجَاءَتْ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ يَفْكَرُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ  
وَهُوَ لَا يَعْلَمُ طَرِيقًا لَهَا حَتَّى..!

نَظَرَ لِلسَّمَاءِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِالْغُيُومِ وَسَارَعَتْ قَطْرَاتُ الْمَطَرِ بِالْهَبُوطِ،  
أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ رَافِعًا رَأْسَهُ لِلسَّمَاءِ وَابْتَسَمَ بَعْفُويَةً لِيُتْرِكَ الْعَنَانَ لِقَدَمَيْهِ  
تَسْوِقَهُ حَيْثُ حَبِيبَتِهِ.

وَصَلَ لِلْمَكَانِ الْمُنَشُودِ وَظَلَّ يَدُورُ بِعَيْنَيْهِ يَبْحَثُ عَنْهَا، لِيُتَسَقَّرَ عَيْنَاهُ  
أَخِيرًا عَلَيْهَا هِيَ تَقِفُ أَمَامَ الْبَحْرِ كَمَا تَوَقَّعُ تِرَاقِبُ تَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ  
وَالرِّيَّاحِ الشَّدِيدَةِ بَيْنَمَا هِيَ ثَابِتَةٌ لَا تَتَحَرَّكُ.

اقْتَرَبَ بِهَدْوٍ شَدِيدٍ وَوَقَّفَ بِجَوَارِهَا وَهُوَ يِرَاقِبُ الْبَحْرَ مِثْلَهَا:

-لَا أَرَى أَنَّ رِوَايَةَ فَرِيدَةَ كَهَذِهِ تَلِيقُ بِهَا نَهَايَةَ مَفْتُوحَةٍ.

استدارت إليه و عدلت نظاراتها بتلقائية وهي تقول بهدوءٍ تُحسد عليه:  
-البدايات لا دخل لنا بها، لكننا نستطيع أن نصيغ النهايات كيفما شئنا.

لم تتزحزح عيناه عن مراقبة الهدوء المريب الذي تراكم بعينيها:  
-أذكرُ مقولتُك "يبدو أن حصوني لم تكن متينة بما يكفي" ما ليّ أراك  
كالحصن المتين وأنتِ تراقبين الأمواج..  
-لا يوجد شيءٌ يبقي على حاله، هناك شروخٌ تلتئم وكان شيئاً لم يكن.

نظر لساعته وقال:

-20:4 مساءً، أرجو ألا أكون قد تأخرت.

أدارت ظهرها وهمت بالرحيل، لوهلةٍ شعر وكأن الحياة ضاقت به،  
باغته صوتها الذي أعاد قلبه للحياة مجدداً:  
-ساعتك مُتأخرة كالعادة، الآن 20:4 مساءً يا سيد.

زفر بارتياح وضحك حتى دمعت عيناه، استدار إليها والدموع تُغلف  
عيناه، لتبتسم قائلة:



-هناك قطارٌ علينا اللحاق به..!

\*\*\*

"هناك تواريخ لم يُكتب لها أن تُمحي من ذاكرتنا بعد، إنه لأمر صعب  
حتى أن أتخيل أن كلّ هذه الأمور كانت ستحدث بيننا، ليتني لم  
ألتقيك.. ليتني لم أحبك.."